في دقائق!! اقرأ: تلخيص كتاب

فهم السلف للنصوص الشرعية

والرد على الشبهات حوله

لفضيلة الشيخ أ.د/ عبدالله الدميجي.

(مطبوع في ٢٩٢صفحة)

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونستهديه، وأشهد ألّا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله.

أما بعد :

فإن الله تعالى نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب، ثم امتنَّ تعالى عليهم بأن بعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، فأنزل عليه كتابًا مفصلاً، تبيانًا لكل شيء، بلسان عربي فبلغ الرسالة، وأدى الأمانة، ونصح الأمة، وتركها ..على البيضاء ثم اصطفى تعالى خيار القرون ليكونوا لنبيه حواريين وأصحاب يقتدون بهديه، ويستنون بسنته، يسمعون مقالته ...

وقد تميّزت هذه الحقبة السلفية المباركة التي شهد لها النبي صلى الله عليه وسلم بالفضل والخيرية على سائر القرون بمشاهدة التنزيل ومعاصرة الرسول صلى الله عليه وسلم في أولهم، وفي نقاء النبع وصفائه قبل مرحلة الاختلاط والعجمة اللسانية والفكرية، وقبل انتشار الفرق وفشو البدع.

ثم خلف من بعدهم خلف، فارقوا الجماعة، واتبعوا غير سبيل المؤمنين، فخرجت الخوارج، ورفضت الرافضة، واعتزلت المعتزلة، وانشقوا عن جماعة المسلمين، فأصبحوا يفهمون كتاب

الله تعالى وسنة رسوله بفهم غريب مخالف لفهم السابقين الأولين من حملته ورواته ونقلته، فهم مبني على جهل مشوب بهوى، أو هوى مصحوب بجهل، فهموا كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم على مرادهم هم، لا على مراد الله ورسوله. فكان من أكبر أساس الافتراق والمروق عن الجادة الانحراف عن فهم السلف، فهم الدليل أو فهم المدلول، واستمر ذلك شعارًا متوارثًا، فارقًا بين السنة والبدعة، بين أهل الاتباع، وأهل الابتداع لذلك أصبح من أبرز قواعد المنهج السلفي على مر العصور في التلقي والاستدلال، ومن أهم الأصول العلمية لفهم النصوص الشرعية ودراستها، الأخذ بفهم السلف الصالح للنصوص، لأن صحة فهم النصوص الشرعية هي الركيزة الأساسية لصحة الاستدلال .

المبحث الأول : معنى « الفهم » والعلاقة بينه وبين العلم والفقه والتفسير

الفهم في اللغة : ((معرفتك الشيء بالقلب، فَهِمَه فَهْمًا وفَ هَمًا وفهامة: علمه، وفهمت الشيء: عقلته وعرفته))قال الله تعالى ((ففهمناها سليمان)) أي : علمناه القضية ، وفقهناه القضاء الفاصل الناسخ الذي أراد الله تبارك وتعالى أن يستقر في النازلة »

وعن علي رضي الله تعالى عنه، قال إنه لا خير في عبادة لا علم فيها، ولا علم لا فهم فيه، ولا قراءة لا تدبر فيها...» وقد بوَّب البخاري في صحيحه باب ((الفهم في العلم)) وذكر حديث ابن عمر لما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الشجرة التي مثلها مثل المسلم))

وعليه فالفهم هو: الإدراك، وهو ما تقرر في النفس من العلوم.

أما الفقه فهو: العلم بالشيء والفهم له. والفقه في الأصل: الفهم يقال : فقُه

بالضم إذا صار الفقه له سجية، وفَقَه: بالفتح إذا سبق غيره إلى الفهم، وفَقِهَ بالكسر إذا فهم

قال الله تعالى ((ليتفقهوا في الدين)) أي: ليكونوا علماء به.

ودعا النبي لابن عمه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فقال: ((اللّهم فَقِّهْهُ في الدين))

وقال صلى الله عليه وسلم ((من يرد الله به خيرًا يُفَقِّهْهُ في الدِّ ينِ » أي: فهمه .

قال الراغب " الفقه: فهو التوصل إلى علم غائب بعلم شاهد. فهو أخص من العلم ، والفقه العلم بأحكام الشريعة"

وقال ابن القيم : الفقه هو: فهم المعنى المراد .

وبهذا يتبين أن معاني ألفاظ الفهم والفقه والعلم متقاربة.

والفهم التام: هو ثمرة التدبر والتأمل بعد معرفة التفسير. ودائرة التدبر أوسع وأرحب من دائرة التفسير.

والفهم نوعان:

الأول: فهم ذهني معرفي: وهو تفسير الغريب، واستنباط الأحكام وأنواع الدلالات، وهذا مختص بأهل العلم على تفاوت مراتبهم .

الثاني: فهم قلبي إيماني: وهو الذي ينتج عن تأمل القارئ للقرآن لما يمر به من آيات كريمة؛ يعرف معانيها ويفهم دلالاتها بحيث لا يحتاج معها أن يراجع .

والنوع الأول: هو الذي عبَّر عنه حبر الأمة رضي الله تعالى عنهما في تعريفه التفسير بقوله "وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يُعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعمله إلا الله ".

معنى مصطلح السلف:

السلف لغة: السين واللام والفاء تدل على تقدم وسَبْق، ومن ذلك السلف الذين مضوا ، فالسلف في اللغة تطلق على من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك الذين هم فوقك في السن والفضل.

كما تطلق على معانٍ أُخر مقاربة، تدور حول معنى التقدم والمضي والسبق الزمني

واستعملت كلمة السلف في القرآن بهذا المعني في ثمانية موضع منها:

قوله تعالى : ((فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف)) وقوله تعالى : ((عفا الله عما سلف)) وقوله تعالى : ((فجعلناهم سلفا)) وقوله تعالى ((يغفر لهم ما قد سلف)).

كما استعمل اللفظ نفسه في السنة النبوية للدلالة على ذات المعنى كقوله صلى الله عليه وسلم لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها لما أخبرها بدنو أجله ((نعم السلف أنا لك)) وقوله لحكيم ((أسلمت على ما سلف من خير)).

كما ورد استعمال اللفظ في السنة بمعنى: القرض، وبيع السَّلَم، وهما يؤولان في نهاية الأمر إلى المعنى الأول من السبق والتقدم.

المعنى الإصطلاحي:

أما من حيث المعنى الاصطلاحي، فله إطلاقان:

الأول: « المفهوم التاريخي للمصطلح » ويدل عليه إطلاقه على حقبة زمنية معينة ،كما في حديث: ((خيركم قرني، ثم الذين يلونهم)).

ولذلك جاءت عبارات العلماء على تحديد السلف على أنهم:

– جمهور أصحاب القرون المفضلة من الصحابة والتابعين وتابع التابعين، وهذا قول جماهير العلماء قديمًا وحديثًا.

– ومنهم من زاد فيه إلى عصر الإمام أحمد.

–وهناك من قصره على جيل الصحابة والتابعين .

–ومنهم من قصره على جيل الصحابة فقط وشذ من تجاوز به إلى من كان قبل الخمسمائة ، والعمدة في ذلك الحديث المذكور آنفًا. لكن هذا يقتضي تحديد معنى (القرن)

وكذلك عدد القرون التالية لقرن النبي صلى اهت عليه وسلمالموصوفة بالخيرية.

واستعمال لفظ (السلف) وإطلاقه على الصحابة معروف عند التابعين، فقد أخرج البخاري في كتاب« الجهاد والسير » من صحيحه باب الركوب على الدابة الصعبة " وقال راشد بن سعد: كان السلف يستحبون الفحولة لأنها أجرى » :

الثاني: :« المفهوم المنهجي » إطلاقه على منهج محدد غير مرتبط بزمن معين.

ثم إن السبق الزمني ليس كافيًا في تعيين السلف المقتدى بهم؛ لأنه عاش في هذه القرون المفضلة من هم من سلف المبتدعة وأهل الأهواء، أمثال ذي الخويصرة في عهدالنبي صلى الله عليه وسلم، وصبيغ بن عسل في عهد عمر بن الخطاب ، رضي الله تعالى عنه، وظهور الخوارج في عهد علي رضي الله تعالى عنه، وكذلك بدأ التشيع والرفض .

ومن المستحسن تقييد ذلك المصطلح إما ب(الجمهور) ليخرج منهم الشواذ، أو بوصف (السلف الصالح) ليخرج الطالح من أهل الأهواء، أو بالتقييد المنهجي بالالتزام واتباع الكتاب والسنة ظاهرًا وباطنًا قولاً وعملاً ؛ لذلك قال الإمام السفاريني رحمه الله " المراد بمذهب السلف ما كان عليه الصحابة الكرام رضوان الله عليهم وأعيان التابعين لهم بإحسان وأتباعهم وأئمة الدين ممن شُهِد له بالإمامة، وعُرِف عظم شأنه في الدين وتلقى الناس كلامهم خلفًا عن سلف دون مَن رمي ببدعة أو شُهر بلقب غير مرضي مثل الخوارج والروافض والقدرية والمرجئة والجبرية والجهمية والمعتزلة فمن تلبس بشيء من هذه الأهواء والبدع ونحوها فلا يُعد".

وبناء عليه فهناك من ربط مفهوم السلف بهذا المنهج وإن تأخر به الزمان، فمن التزمه فهو سلفي وإن كان في العصور المتأخرة، فأطلقت الدعوة السلفية على دعوة شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته، وعلى دعوة الإمام محمد بن عبد الوهاب وأتباعه، وعلى كل من اتبع ذلك المنهج من المتقدمين والمتأخرين، ممن أحيى سنة السلف المتقدمين ودعا إلى الالتزام بما كانوا عليه من الفهم والعمل والاعتقاد.

ويعضد ذلك ما ورد في بعض روايات حديث الافتراق في بيان منهج الفرقة ، فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يربط الفرقة الناجية بما كان عليه أهل حقبة زمنية محددة، وإنما بمنهج واضح محدد المعالم وهو ما كان عليه النبي وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم، وذلك يشمل ما كانوا عليه في الاعتقادات والعبادات والمعاملات والسلوك والأخلاق... إلخ.).

وعلى هذا المعنى جاز الانتساب إلى السلفية بمفهومها المنهجي. فمن التزم هذا المنهج قولاً وعملاً ظاهرًا وباطنًا فهو سلفي وإن تأخر به الزمان.

وحقيقة الانتساب إلى السلف الصالح تكون من جهتين:

١ من جهة التزام منهجهم في التلقي والاستدلال.

٢ من جهة القول بقولهم في مسائل الاعتقاد التي تميزهم عن أهل الأهواء والبدع ، والتبري من مقالاتهم البدعية.

المراد بفهم السلف

بعد أن تبين لنا معنى الفهم المقصود هنا وأنه شامل للمعاني الدالة عليها الألفاظ الواردة واستنباط الأحكام وأنواع الدلالات. كما يشمل الاستنباطات والمفاهيم المستنبطة من إيحاءات النص ودلالاته غير المباشرة، وعرفنا معنى «السلف» والذي نعني به هنا المعنى الأول التاريخي، وهم أصحاب القرون الثلاثة المفضلة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم والتابعين وتابعيهم بإحسان. بقي أن نحدد معنى «فهم السلف» المراد في هذا البحث.

وهو فيما ظهر لي والعلم عند الله أن المراد بذلك: "ما علمه وفقهه واستنبطه الصحابة والتابعون وأتباعهم من مجموع النصوص الشرعية أو أفرادها مرادًا لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم مما يتعلق بمسائل الدين العلمية والعملية، مما أُثر عنهم بقول أو فعل أو تقرير، بشرط عدم المخالف من نص أو قول مماثل.

وهذا يقتضي إجماعهم أو جمهورهم على تلك المسائل أو انتشار قول آحادهم وظهوره مع عدم وجود مخالف منهم لذلك القول.

وهذا مما يخرج اجتهاد أفراد الصحابة أو من دونهم في بيان بعض الأحكام الجزئية أو تفسير أفرادهم لبعض الآيات القرآنية التي اختلفوا فيها وتعددت أقوالهم أو لم يشتهر ذلك عنهم، أو جانب الصواب بعضهم. فهذا يُعد فهمًا وقولاً للسلف وليس هو «فهم السلف» وفرق بين الأمرين.

ومعنى «فهم السلف» هو ما فهموه مرادًا لله تعالى أو لرسوله من تلك النصوص «ومستندهم في معرفة مراد الرب تعالى من كلامه ما يشاهدونه من فعل رسوله وهديه، وهو يفصل القرآن ويفسره».

فما أمرهم به أو نهاهم عنه اتبعوه، وما أخبرهم به صدقوه، وما أَشكل عليهم فهمه سألوه، ويترتب على ذلك ما يلي:

١ - التصديق به والإيمان والإذعان الكامل إن كان النص من الأمور العلمية الخبرية.

٢ - العمل به وتطبيقه قدر المستطاع إن كان من الأمور العملية الطلبية فعلاً أو تركًا.

٣ -تركه، وعدم التقرب إلى الله تعالى به إن كان قد سكت عنه الشارع مع وجود المقتضي.

وهذا يعني أنه يتعين على المسلم الحريص على دينه أن ينظر إلى ما فهمه من النصوص الشرعية دالاً على اعتقاد أو عمل فيعرضه على فهم السلف الصالح من هذه النصوص هل اعتقدوا ذلك أم لا، وهل عملوا به أم لا؟ يقول الحافظ ابن رجب رحمه الله- وهي رسالة مهمة جدًا لكل طالب علم يرجو النجاة لنفسه-: «فالذي يتعين على المسلم الاعتناء به والاهتمام أن يبحث عما جاء عن الله ورسوله، ثم يجتهد في فهم ذلك والوقوف على معانيه، ثم يشتغل بالتصديق إن كان من الأمور العلمية، وإن كان من الأمور العملية بذل وسعه في الاجتهاد في فعل ما يستطيعه من الأوامر واجتناب ما ينهى عنه فتكون همته مصروفة بالكلية إلى ذلك لا إلى غيره. وهكذا كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والتابعون لهم بإحسان في طلب العلم النافع من الكتاب والسنة» اهـ.

فالوقوف على فهم السلف الصالح هو المرحلة الثانية لطالب العلم بعد الوقوف على الأدلة الشرعية من الكتاب والسنة ليضبط فهمه لهذه النصوص، ويسلم من الانحراف إفراطًا أو تفريطًا.

ومن المعلوم بيقين أن من أكبر أسباب الابتداع في الدين هو الانحراف في فهم النصوص، وما انحرفت الخوارج إلا لانحرافهم في فهم نصوص الوعيد، والضابط لهذا الفهم هو فهم الصحابة رضوان الله تعالى عليهم ثم أتباعهم من أصحاب القرون المفضلة، ولذلك احتج

عليهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما بقوله لما ناظرهم: «ولم يكن فيكم أحد ممن صحب رسول الله.

ومن الأمثلة على ذلك ما فهمه السلف الصالح من نصوص الكتاب والسنة الدالة على تعظيم الله تعالى وتوقيره وتوحيده وعدم صرف شيء من أنواع العبادات القلبية والعملية والقولية لغيره تعالى، وعدم اتخاذ الوسائط بين الله تعالى وبين خلقه في قضاء الحاجات وقبول الدعوات وكشف الكربات، ونحوها كقول عمر: «اللّٰهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فأسقنا»، وذلك بمحضر من الصحابة، ولم ينقل عن أحد منهم اعتراض.

وكذلك توحيده تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى والتوسل إليه بها، وعدم رد شيء مما وصف الله تعالى به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم، وأن ما توهمه المتأخرون من أن القول بظاهر هذه النصوص يوهم التشبيه وعدم التنزيه فهو فهمٌ مخالف لفهم السلف الصالح .

وبناء على ما تقدم فقد أصبح اتباع السلف الصالح في فهمهم لمسائل العقيدة وأدلتها شعارًا وأصلاً من أصول أهل السنة والجماعة، ولذلك قال الإمام أحمد في رسالته في السنة: «أصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بهم، وترك البدع...»كما أن شعار أهل البدع هو ترك انتحال اتباع السلف.

ومن الأمثلة على ذلك قول ابن تيمية في مناظراته في العقيدة الواسطية: «فقد أمهلت من خالفني في شيء منها ـ يعني العقيدة الواسطية التي تمثل عقيدة السلف ـ ثلاث سنين، فإن جاء بحرف

واحد عن القرون الثلاثة يخالف ما ذكرته فأنا راجع عن ذلك، وعلى أن آتي بنقول جميع الطوائف عن القرون الثلاثة يوافق ما ذكرته».

وفهم السلف رحمهم الله تعالى شامل لثلاثة أمور:

١ ـ فهمهم للأصول الكلية من أصول الدين أو فروعه وهذا ما سبق الكلام عليه.

٢ ـ فهمهم لنص شرعي بعينه.

٣ ـ الاجتهاد في فهم مسألة من المسائل التي لم يرد النص الشرعي صريحًا في بيانها، وإنما تفهم على ضوء عموم النصوص والمقاصد الشرعية العامة. فلا شك أن اجتهاد آحادهم في هذه المسألة أولى من اجتهادنا إذا لم يكن له مخالف منهم كما قال الإمام الشافعي: «إنهم فوقنا في كل عقل وعلم وفضل وسبب يُنال به علم، أو يدرك به صواب، ورأيهم لنا خير من رأينا لأنفسنا».

ومن المعلوم أن فهم الصحابة أولى أن يؤخذ به من فهم التابعين، وفهم التابعين أولى من فهم تابعي التابعين، وهلم جرا «وكلما كان العهد إلى الرسول أقرب كان الصواب أغلب، وهذا حكم بحسب الجنس لا بحسب كل فرد من المسائل».

وفهم السلف والاحتجاج به يتناول جانبين من العلم:

الأول: تلك المسائل العلمية التي بيَّن فيها السلف فهمهم بقول أو فعل أو تقرير، سواء كانت من المسائل المجمع عليها عندهم أو المختلف فيها. وهذه تختلف أحكامها باختلاف حالاتها.

الثاني: الاقتداء بالسلف في مسالك العلم والتحصيل والنظر ومناهج الاستدلال، وترتيب الأدلة وطريقة النظر في مسائل الخلاف، وقد اتفق السلف على أدلة حررها أهل أصول الفقه في مصنفاتهم مهتدين بما عمل به السلف في هذا الباب.

أهمية فهم السلف:

من المعلوم أن الله تعالى أنزل القرآن الكريم ﴿ تبيانا لكل شيء ﴾ [النحل: ٨٩] و﴿ تصديق الذي بين يديه ﴾ [يوسف: ١١١] ومع ذلك بعث تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ﴿ بلسان قومه ﴾ [إبراهيم: ٤] وكلفه تعالى ببيان القرآن الكريم فقال تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ [النحل: ٤٤].

فقام الرسول صلى الله عليه وسلم بذلك خير قيام؛ فبيَّن ما نُزِّل إليه من ربه من الكتاب والحكمة. وكان المتلقي لهذا البيان هم صحابته الكرام الذين اختارهم الله لصحبة نبيه وتبليغ دينه من بعده فأحسنوا القيام بذلك فهمًا وعلمًا واعتقادًا، وحمل الأمانة من بعدهم أتباعهم بإحسان من التابعين، ومن بعدهم من الأئمة.

ومن المعلوم أن نصوص الشارع الحكيم في مجملها واضحة محكمة لا غموض فيها ولا التباس.

كما أن الاختلاف في الأمة من سنن الله الكونية، وهو واقع بينهم لا محالة، ومن أكبر أسبابه الغلط في فهم النص، وفهمه على غير مراد الله تعالى ورسوله.فكان حريًا الرجوع إلى فهم السلف الصالح من الصحابة فمن بعدهم لفهم هذه النصوص على ضوء فهمهم، فالسلف علمهم أتم وأحكم، وأعلم وأسلم، فلهذا كانوا أعرف الناس بالحق وأدلته وبطلان ما يعارضه ،

وكانوا أعظم الناس قيامًا بدين الله تعالى، لا تأخذهم في الله لومة لائم، ولا تصدهم عن سبيل الله العظائم، بل يتكلم أحدهم بالحق الذي عليه، ويتكلم في أحب الناس إليه من أجل دينه وإيمانه.

وهناك عدة اعتبارات توجب الرجوع إلى فهمهم لمعرفة حقيقة المراد من النصوص الشرعية، وهي خصائص لا تجتمع في غيرهم، لذلك كان فهمهم مقدمًا على غيره من الفهوم، **ومن أهم هذه الميزات:**

١ - سلامة مصادرهم في التلقي: فقد تلقوا بتجرد تام وإيمان كامل وتسليم مطلق، لم يحاكموه إلى غيره.

٢ - لم تشب أفهامهم شبهات خارجية؛ لأنه لم يظهر بعد ما يكدر تلك الأفهام الصافية، بل كان النبي صلى الله عليه وسلم يحميها من أن تشبها شائبة خارجية، فأنكر على عمر لما رأى معه قطعة من التوارة، وقال: «ألم آتكم بها بيضاء نقية...» وقال: «قد تركتكم على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك»..

٣ - حرصهم على طلب العلم وفهم النصوص والسؤال عما أشكل عليهم ، ويتبين ذلك بما يلي:

أ - فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، يقول: «والذي لا إله غيره ما أنزل الله سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت، ولا أنزلت آية في كتاب الله إلا وأنا أعلم فيما أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه».

ب ـ وعائشة رضي الله تعالى عنها يقول عنها ابن أبي مُليكة: «أنها كانت لا تسمع شيئًا لا تَعْرِفُهُ إلا راجعت فيه حتى تعرفه».

ج ـ وروى الإمام مالك ، رحمه الها، في «الموطأ»: أن ابن عمر أقام على حفظ البقرة ثمان سنين يتعلمها.

د ـ وهذا ليس قاصرًا على الصحابة، بل على أتباعهم من القرون المفضلة، فهذا مجاهد يقول: «عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات، من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل آية وأسأله عنها». وطلب فهم النصوص أمر مؤكد عندهم كما دلّت عليه الآيات الآمرة بالتدبر. قال الحسن البصري: «ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يُعلم ما أراد بها».

٤ - أنهم كانوا أحرص الناس على العمل بما سمعوه، ولا يمكن العمل إلا عن فهم وعلم ودراية.

أ ـ وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة بذلك فقال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي، إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب، يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنه تخلف من بعدهم خُلُوفُ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون».

ب ـ وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: «حدثنا الذين كانوا يقرؤوننا القرآن كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما: أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعًا»قال ابن تيمية: «ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وأتباعهم وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم

بالحق الذي بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، فمن خالف قولهم، وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعًا...».

ويقول الشاطبي في تعداد مرجحات الاعتماد على بيان الصحابة: «والثاني: مباشرتهم للوقائع والنوازل، وتنزيل الوحي بالكتاب والسنة؛ فهم أقعد في فهم القرائن الحالية، وأعرف بأسباب النزول، ويدركون ما لا يدركه غيرهم بسبب ذلك، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، فمتى جاء عنهم تقييد بعض المطلقات أو تخصيص بعض العمومات، فالعمل عليه صواب، وهذا وإن لم ينقل عن أحد منهم خلاف في المسألة، فإن خالف بعضهم فالمسألة اجتهادية».

وخلاصة الأمر: أنه كلما كانت عدالة الشخص أكمل كان لذلك أثر في موافقته الحق أكثر من غيره. وهذا ما أوجب تقديم فهم الصحابة وأتباعهم على غيرهم ممن جاء من بعدهم.

أدلة حجية فهم السلف:

الأدلة الشرعية الدالة على وجوب تقديم فهم السلف، والرجوع إليه عند التنازع والاختلاف، واعتباره الفيصل في فهم دلالات منها ما هو صريح في دلالته، ومنها ما هو دالّ بمفهومه، ومن هذه الأدلة ما يلي:

أولا: الأدلة القرآنية:

١ قوله تعالى : ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ

ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾[التوبة: ١٠٠] فالآية صريحة في الثناء على المتبعين للسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار وهم أئمة السلف الصالح ، وهو شامل للاعتقاد والعمل ، كما دلت بالمفهوم على بطلان ما خالفهم في ذلك. وقد احتج بها الإمام مالك وجوب اتباع الصحابة رضوان الله عليهم ومثل هذه الآية في الدلالة : الآيات التي أثنى الله تعالى فيها على الصحابة رضوان الله قوله تعالى: {مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا }[الفتح: ٢٩] وقوله تعالى ((لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة)) وغيرها من الآيات الآمرة باتباعهم. وهذا كله تنبيه للأمة على صحة مسلكهم، وأن فهمهم هو الفهم الصحيح.

٢ -قوله تعالى: {فَإِنْ آمَنُواْ بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَواْ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيم}[البقرة: ١٣٧]فقيد الإيمان بالإيمان بمثل ما آمن به الرسول وأصحابه، ولا شك أن هذا الإيمان إنما هو نتيجة الفهم الثاقب والعلم الصائب للوحي.

٣ -قوله تعالى:{وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءتْ مَصِيرًا }[النساء: ١١٥]فالآية آمرة باتباع سبيل السلف الصالح متوعدة من خالفهم واتبع غير سبيلهم بالخذلان والنار، ومن المعلوم أنه «قد ضمنت لهم العصمة في اجتماعهم من الخطأ تشريفا لهم وهذه الآية قد استدل بها العلماء على أن إجماع هذه الأمة حجة قاطعة ، والنهي عن مخالفة سبيلهم يتضمن الأمر باتباع سبيلهم، واتباعهم يكون باعتماد ما اعتمدوه وأجمعوا عليه من القول .

٤ قوله تعالى :{كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ}[آل عمران: ١١٠]وهذه الخيرية دليل على صحة ما كان عليه الصحابة رضي الله عنهم من العقيدة والعمل، وهي نابعة من سلامة الفهم عن الله تعالى ورسوله.

٥ ـ قوله تعالى {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا }[البقرة: ١٤٣]والوسط: الخيار العدول ، ويلحق بهم من اتبعهم بإحسان في علومهم وأفهامهم، يقول ابن القيم في إعلام الموقعين: «فهم خير الأمم وأعدلها في أقوالهم وأعمالهم وإراداتهم ونياتهم، وبهذا استحقوا أن يكونوا شهداء للرسل على أممهم يوم القيامة، والله تعالى يقبل شهادتهم عليهم، فهم شهداؤه، ولهذا نوه بهم ورفع ذكرهم وأثنى عليهم...».

ثانيا: الأحاديث النبوية:

ومن الأحاديث النبوية الدالة على وجوب تقديم فهم السلف الصالح من الصحابة ومن بعدهم من القرون المفضلة ما يلي:

١ - قوله صلى الله عليه وسلم ((فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافا كثير،فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة». فهذا أمر صريح باتباع سنة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم وهم أئمة السلف في الفهم والعلم والاعتقاد والعمل.قال الشاطبي ، رحمه اله : «فقرن عليه السلام ـ كما ترى ـ سنة الخلفاء

الراشدين بسنته، وأن من اتباع سنته اتباع سنتهم، وأن المحدثات خلاف ذلك، ليست منها في شيء؛ لأنهم رضي الله عنهم فيما سنوا إما متبعون لسنة نبيهم عليه السلام نفسها، وإما متبعون لما فهموه من سنته في الجملة والتفصيل على وجه يخفى على غيرهم مثله لا زائده على ذلك».

٢ ـ قوله صلى الله عليه وسلم: «خير القرون قرني، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم، ثم يجئ أقوام تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته» وهذا الحديث رواه خمسة عشر صحابيا وقد نص على تواتره ثلة من أهل الفن والاختصاص فدل ذلك على أن أهل هذه القرون الثلاثة الذين هم السلف الصالح رضي الله عنهم خير الأمة بإطلاق، قال ابن القيم: «وذلك يقتضي تقديمهم في كل باب من أبواب الخير وإلا لو كان خيرا من بعض الوجوه فلايكونون خيرالقرون مطلقا » ويشبه هذا الحديث في الدلالة جميع الأحاديث والآثار التي مدحت الصحابة وأثنت عليهم وحثت على الاقتداء بهم مثل: «لا تسبوا أصحابي...»وعليه «فترجيح منهج آخر غير منهج الصحابة فيه إبطال لجميع النصوص التي تدل على فضلهم؛ إذ كيف يفضل قوم على غيرهم وهم لم يهتدوا إلى المنهج الصحيح في فهم الدين»

٣ ـ وعن أبي واقد الليثي رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالً يوما: «إنها ستكون فتن» قالوا: فكيف لنا يا رسول الله؟ أو كيف نصنع؟ قال: «ترجعون إلى أمركم الأول». أي: ما عليه سلفكم، وهذا شامل لفهمهم للنصوص وعملهم بمقتضاها. والخطاب وإن كان للصحابة رضوان الله عليهم، فكأنه يشير إلى فتنة الاختلاف . والشاهد من الحديث

أنه كلما قرب العهد من النبوة وصدر الإسلام فهو أسلم من الفتن. وفيه إشارة إلى أن السلامة في الرجوع إلى ما عليه السلف الأول. والعلم عند الله.

ثالثا: من مأثورات الصحابة والأئمة المتقدمين المقتدى بهم الحاثة على الالتزام بما كان عليه السلف رحمهم لله:

كثرت النصوص الواردة عن الصحابة والتابعين وأئمة الدين المقتدى بهم من بعدهم في الحث على الاقتداء بالسلف الصالح وترسم خطاهم في كل فهم وعلم وعمل واعتقاد ، وإليك هذا النزر اليسير من مأثور أقوالهم الناصحة في هذا الموضوع الخطير.

١ – فعن حذيفة بن اليمان رضي الله تعالى عنه قال: «يا معشر القراء، خذوا طريق من كان قبلكم، فوالله لئن استقمتم لقد سبقتم سبقاً بعيدا، ولئن تركتموه يمينًا وشمالا، لقد ضللتم ضلالا بعيدا»

٢ – وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه: «تعلموا العلم قبل أن يقبض... وعليكم بالعتيق». والعتيق: هو الأمر الأول كما تقدم في الحديث،وهو شامل لفهمهم وعملهم واعتقادهم رضي الله تعالى عنهم.

٣ – ما رواه عثمان بن حاضر قال: قلت لابن عباس رضي الله تعالى عنه: أوصني. قال: «عليك بالاستقامة، واتبع الأمر الأول، ولا تبتدع».

٤– وقال الأوزاعي: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم».

٥- وقال الإمام مالك: «لا نصلي خلف المبتدع منهم...» إلى أن قال: «والتسليم للسنن لا تعارض برأي ولا تدافع بقياس، وما تأوله منها السلف الصالح تأولناه وما عملوا به عملناه، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه وفي تأويله».

٦- وقال أبو الحسن الأشعري (ت ٣٢٤هـ) - في طوره السلفي الأخير -: «قولنا الذي نقول به، وديننا الذي ندين لله به، التمسك بكتاب ربنا وسنة نبينا، وما روي عن الصحابة والتابعين، وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون...»

٧- وقال أبو نصر السجزي (ت ٤٤٤هـ): «أهل السنة هم الثابتون على اعتقاد ما نقله إليهم السلف الصالح رحمهم الله عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه رضي الله عنهم فيما لم يثبت فيه نص من الكتاب ولا عن الرسول عليه الصلاة والسلام؛ لأنهم رضي الله عنهم أئمة، وقد أُمرنا باقتداء آثارهم، واتباع سنتهم، وهذا أظهر مما يحتاج فيه إلى برهان».

٨- وقال الإمام الذهبي (ت ٧٤٨هـ): «فإن أحببت يا عبد الله الإنصاف فقف مع نصوص القرآن والسنة، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات، وما حكوه من مذاهب السلف، فإما أن تنطق بعلم وإما أن تسكت بعلم».

رابعا: دليل الإجماع:

قد انعقد إجماع أهل السنة والجماعة على أن خير قرون هذه الأمة في الأعمال والأقوال والاعتقادات وغيرها من كل فضيلة القرن الأول ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم. وقد حكى

هذا الإجماع ابن تيمية وقال بعد حكاية الاتفاق على ما تقدم :((هذا لا يدفعه إلا من كابر المعلوم بالضرورة من دين الإسلام، وأضله الله على علم».

خامسا: المعقول والاعتبار الصحيح:

ومن ذلك:

١ – أن من المتقرر عند عامة المسلمين أن الصحابة هم أكمل الأمة عقولا وأزكاها ، وأتمها ً فهما، وأقواها إيمانا واتباعا ، فمن المحال والممتنع أن من هذه صفته يكون من بعده من الخلف أزكى منه وأتم لمعرفة الحق بالفهم الصحيح منه.

٢ – أنه عند اختلاف فهم السلف مع فهم الخلف فلا يخلو الحال من أحد أمرين:

أ ـ إما أن يكون الحق مع القوم الذين اصطفاهم الله لصحبة خير خلقه وصفوة رسله.

ب ـ وإما أن يكون الحق مع قوم إنما أخذوا علومهم من المنطق اليوناني ومن القواعد الفلسفية المناقضة للمعقول والمنقول.. فأي الفريقين أحق بمعرفة وفهم ما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم .

ولذا فإن «أصل وقوع أهل الضلال في مثل هذا التحريف الإعراض عن فهم كتاب الله تعالى كما فهمه الصحابة والتابعون، ومعارضة ما دل عليه بما يناقضه وهذا من أعظم المحادة لله ولرسوله لكن على وجه النفاق والخداع»

٣ – أن أساطين علماء الخلف قد اعترفوا بخطأ ما هم عليه من الفهم وطرائق الاستدلال وندموا على ما تعلموه مما هو مخالف لفهم السلف أنهم لم يكن معهم إلا الوهم والخيالات الفاسدة والظنون الكاذبة المورثة لعذاب الشك والحيرة وعدم اليقين. وفي مقابل ذلك يقول ابن تيمية: «أما السلف فما علم عن أحد من علمائهم ولا صالح عامتهم رجوع عما هم عليه ».

٤ – من المحال أن تكون القرون الثلاثة المفضلة ـ بما فيها قرنه عليه الصلاة والسلام الذي بعث فيه ـ غير عالمين ولا فاهمين للحق ولا قائلين عاملين به؛ «لأن ضد ذلك إما عدم العلم والقول، وإما اعتقاد نقيض الحق، وقول خلاف الصدق، وكلاهما ممتنع .

٥– من المعلوم أن لاستنباط الأحكام من النصوص الشرعية ركنين أساسيين كما قال الشاطبي: «أحدهما علم لسان العرب. وثانيهما : علم أسرار الشريعة ومقاصدها. أما الركن الأول فقد كانً وصفا غريزيًا في الصحابة والتابعين والعرب الخلص فلم يكونوا في حاجة لقواعد تضبطه لهم. كما أنهم كسبوا الاتصاف بالركن الثاني من طول صحبتهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ومعرفتهم الأسباب التي ترتب عليها التشريع حيث كان ينزل القرآن وترد السنة نجومًا بحسب الوقائع، مع صفاء الخاطر فأدركوا المصالح، وعرفوا المقاصد التي راعاها الشارع في التشريع».

<u>هل يجوز إحداث فهم جديد للنص الشرعي لم يفهمه السلف:</u>

أجاز العلماء، رحمهم الله، استنباط معان وفهوم ودلالات من النصوص الشرعية لم ينصّ عليها السلف الصالح، ولكن بشروط وضوابط، من أهمها:

١. ألّا يتعارض هذا المعنى مع فهم السلف الصالح، لأنه لو عارضه للزم منه تخطئة وتجهيل الصحابة في فهمهم القرآن الكريم، وأنهم أجمعوا على هذه الجهالة والضلالة، لكمايلزم منه نسبة الأمة إلا الجهل والخطأ في قرونها المفضلة، ويلزم منه القول بخلو العصر ممن هو قائم لله بحجة، وهذا باطل.

٢. أن يكون المعنى الجديد موافقاً للسّان العربي، لكونه لسان الملّة والدين.

٣. أن يكون له شاهد يؤيده من القرآن أو السنة، فالقرآن يشهد بعضه لبعض، والسنة تُبيِّن وتفصل ذلك.

ثمرات الالتزام بفهم السلف الصالح

لاشك أن للالتزام بفهم السلف الصالح لنصوص الكتاب والسنة العاصمة من كل فتنة مضلة، له ثمرات يانعة وآثارٌ نافعة، تحفظ المرء في عقيدته وعبادته وتعصمه بإذن الله من الأهواء والمفاهيم الشاذة والأفكار المنحرفة وما سلت السيوف، وأزهقت الأرواح وسفكت الدماء وانتهكت الحرمات وكفر المسلمون وفرقت جماعتهم قديمًا وحديثًا إلابسبب التأويل الباطل المبني على الفهم السقيم للنصوص الشرعية المخالف لفهم السلف الصالح رضوان الله تعالى عليهم. ومن أبرز هذه الثمرات:

١ - أنه السبيل لمعرفة مراد الله تعالى ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم؛ إذ هي غاية كل مسلم يريد الاعتصام بالكتاب والسنة قولاً وعملاً ظاهرًا وباطنًا لينجو من الفتن ويحقق عبودية ربه على هدى وبصيرة.

٢ - أنه أهم وسيلة لحسم مادة الابتداع وإغلاق باب البدعة والإحداث في الدين؛ لأن المبتدعة عادة ما يتعلقون ببعض النصوص ويتأولونها على غير تأويلها، ويفهمونها على غير مراد الله ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم ولكن على مرادهم هم لتوافق أهواءهم وما استحدثوه من البدع. وفهم السلف هو الفيصل في هذه المسألة، وهو الحق الذي ليس بعده إلا الضلال، قال تعالى: ﴿ فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ﴾[البقرة: ١٣٧].

٣ - أنه العاصم من التفرق والاختلاف المذموم.

ولذلك قال عمر بن الخطاب لابن عباس رضي الله تعالى عنهم: «كيف تختلف هذه الأمة ونبيها واحد وقبلتها واحدة؟قال ابن عباس: يا أمير المؤمنين؛ إنما أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيمن نزل، وأنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن ولايدرون في مَن نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا ».

٤ - أنه يُورث الطمأنينة والأمن النفسي القاطع لشوائب الاحتمالات المقدرة، الرافع للإشكالات المتوهمة. فمتى علم المتفقه وطالب العلم أنفهمه للدليل موافق لفهم السلف الصالح كان ذلك حاسمًا للترددات شاهدًا صادقًا على صحة الاستدلال بالدليل مصدقًا له.

٥ - أنه الضابط في معرفة السنة من البدعة.

فكل دين وعبادة لم يكن معروفًا عند السلف، فهو من الابتداع والإحداث في الدين، وتقدم مأخذ ابن عباس على الخوارج: بأنه ليس فيهم أحد من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم،الذين هم أعلم الناس بتأويل القرآن.فدل على: أن الحجة بفهم الصحابة وما كانوا عليه وليس العكس، وأن أهل البدع هم الذين انشقوا عن الجماعة وخالفوا الصحابة والأئمة. ولذلك «لم يسلم أحد من البدعة، ولا يسلم له عقيدة إلا أن يسلم كما أسلم السلف، وأن يفهم النصوص كما فهموا، ويترك علم ما لم يكلف، وهذا مسلك أئمة السنة».

وصلى الله على النبي الكريم.